دور أسلاف عرب شمال الجزيرة العربية

في نشأة الخط المسند اليمني القديم

بقلم

د. / عبد المنعم عبد الحليم سيد

كان الاعتقاد السائد بين الباحثين في أصول الكتابات، أن الأبجدية العربية الجنوبية القديمة المعروفة باسم «الخط المسند» ترجع في أصلها الى الأبجدية الفينيقية بسبب التشابه بين بعض حروف الأبجديتين. غير أنه تبين عدم صحة هذا الرأي بعد دراسة احدى الكتابات المحفورة على صخور شبه جزيرة(١) سيناء والمعروفة بين الباحثين باسم «الكتابة البروتوسينائية» فقد اتضح أن سبب هذا التشابه يرجع أساسا الى أن الأبجديتين اشتقاق مصدر واحد هو هذه الأبجدية البروتوسينائية.

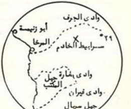
وادى الجرف
أبو زنيمة
٢٩
المرخا
سرابيط الخادم
وادى مغارة
جبل المكتب
وادى فيران
جبل سربال

والأبجدية البروتوسينائية **تتكون من ٢٧ حرفا** وقد اشتقت من الكتابة الهيروغليفية المصرية. وأصحابها أو الذين ابتكروها هم أهل سيناء القدماء أي أنهم من العنصر السامي الشمالي الذي ينتمي اليه عرب شمال الجزيرة العربية. وسوف نطلق عليهم في هذا المقال اسم «سكان سيناء القدماء» أو «سكان سيناء» فقط تيسيرا على القاريء في متابعة المقال.

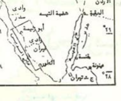

أما كيف تعرّف سكان سيناء القدماء هؤلاء على الكتابة الهيروغليفية المصرية واشتقوا منها كتابتهم البروتوسينائية فقد حدث ذلك إبان النشاط المصري القديم في سيناء. فلقد ارتاد المصريون القدماء سيناء منذ أقدم عصور تاريخهم بحثا عن المعادن والأحجار الكريمة اذ كانت مناجمها الغنية بالنحاس أول مالفت أنظار المصريين اليها. فكان ملوكهم منذ عصر الملك زوسر **(باني الهرم المدرج في سقارة حوالي عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد)** يرسلون البعثات التعدينية الى منطقة وادي مغارة **(الواقعة الى الشمال من وادي فيران بقليل، انظر الخريطة رقم ١)** لتعدين النحاس، ثم اجتذبت مناجم الفيروز اهتمامهم بعد ذلك فأخذوا يرسلون بعثات التعدين الى منطقة سيرابيط الخادم الى الشمال الشرقي من وادي مغارة بقليل **(على خريطة عرض أبي زنيمة تقريبا - انظر الخريطة رقم ١)** حيث توجد أغنى مناجم سيناء بهذا الحجر نصف الكريم.

ورغم أن العلاقة بين المصريين وبين سكان سيناء بدأت عدائية، إذ تصور الرسوم المصرية على صخور سيناء، الفراعنة وهم يضربون زعماء هؤلاء السكان، إلا أنه بمرور الوقت حدث نوع من التقارب بين الطرفين وخاصة ابتداء من عصر الأسرة الثانية الفرعونية (مابين ٢٠٠٠، ١٨٠٠ قبل الميلاد) عندما بلغ النشاط التعديني المصري في سيناء ذروته ثم في عهد الأسرة الثامنة عشرة

الفرعونية أيضا (مابين ١٥٥٠ – ١٣٥٠ ق.م) فقد كان للملوك هاتين الأسرتين نشاط تعديني واسع النطاق في سيناء وخاصة في مناجم الفيروز بسيرابيط الخادم. ويدلنا على ذلك ضخامة البعثات المصرية الى هذه المناجم. ففي عهد الأسرة الثانية عشرة بلغ أفراد احدى هذه البعثات ٧٣٤ رجلا، ولكن رغم ذلك يبدو أن المصريين احتاجوا الى المزيد من الأيدي العاملة للحفر في المناجم، ومن هنا لجأوا الى سكان المنطقة لمعاونتهم في ذلك. وكان زعماء هؤلاء السكان يقومون بامدادهم بالأعداد اللازمة من العمال كما تدلنا على ذلك النقوش الهيروغليفية، وهكذا كانت المصلحة المشتركة دافعا للتقارب بين المصريين وبين سكان سيناء.

وتدلنا ألقاب الموظفين المصريين في البعثات التعدينية المسجلة على الآثار المصرية في سيناء أن المصريين كانوا من ناحيتهم يبذلون جهدهم نحو هذا التقارب مع سكان سيناء ونحو تفهمهم. فقد ورد بين هذه الألقاب لقب **«مترجم العامو» وكلمة «العامو» هو الاسم الشامل الذي أطلقه المصريون على الشعوب السامية**

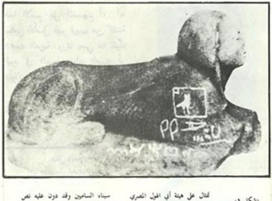

(شكل ١) تمثال على هيئة أبي الهول المصري عثر عليه في المعبد بمنطقة سرابيط الخادم بسيناء وهو من صنع سكان سيناء الساميين وقد دون عليه نص بالهيروغليفية وأسفله نص بالبروتوسينائية.

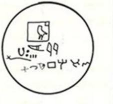

(شكل ٢)

تفصيل النصين الهيروغليفي والبروتوسينائي على التمثال الموضح في شكل (١). والنص البروتوسينائي هو ترجمة تقريبا للنص الهيروغليفي وكان هذا النص أول الخيط الذي التقطه العلماء وساروا على هديه حتى تمكنوا من حل رموز الكتابة البروتوسينائية.

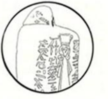

(شكل ٣)

التمثال المصري المعروف بين علماء الآثار باسم «تمثال الشخص القابع» وقد وجد في المعبد المصري بسرابيط الخادم وقد حفرت عليه كتابة هيروغليفية تسجل اسم صاحب التمثال وعبارة دينية نذرية.

بوجه عام ومن بينهم سكان سيناء. والظاهر أن الساميين كانوا يطلقون هذا الاسم على أنفسهم أي أنه سامي الأصل فهو قريب من كلمة «عم» العربية. وربما يعني ما نقوله اليوم في العربية «ولد العم» أو «أولاد العم».

أما من ناحية سكان سيناء فقد تقاربوا مع المصريين باتباع بعض عاداتهم الدينية وتقليد مظهرهم.

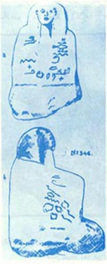

(شكل ٤)

تمثال بروتوسينائي نحته أحد سكان سيناء على غرار التمثال المصري الموضح في شكل (٣) وعليه كتابة بروتوسينائية تسجل اسم صاحب التمثال وأيضا عبارة دينية نذرية.

فقد وجد بين الآثار المصرية في سيناء تماثيل على هيئة أبي الهول وغيرها من الأشكال المصرية الصميمة وقد دونت عليها عبارات بالكتابة البروتوسينائية (الأشكال ١ – ٤) أي أن أصحابها الساميين صنعوها على الطراز المصري بينما نقشوا عليها كتاباتهم، كذلك ظهرت بين الرسوم في سيناء صور لبعض سكان سيناء وهم يرتدون الزي المصري الصميم (النقبة القصيرة) وقد حلقوا لحاهم كالمصريين (شكل ٦) وذلك على عكس عادة الساميين الذين كانوا يظهرون في الرسوم المصرية وقد أطلقوا لحاهم وارتدوا ملابس طويلة مزركشة (شكل ٧).

والمركز الرئيسي للالتقاء بين المصريين وسكان سيناء كان المعبد المصري الذي أنشأه المصريون في منطقة سيرابيط الخادم حيث توجد مناجم الفيروز. وتدل الآثار التي تبقت من هذا المعبد أنه أنشيء في مكان معبد خاص بسكان سيناء، وبذلك أصبح موقعه منطقة مقدمة لدى كل من سكان سيناء والمصريين ونقطة التقاء بين الحضارة المصرية القديمة والثقافة السامية. ورغم تعدد النواحي الحضارية التي أخذها سكان سيناء عن المصريين القدماء سواء أثناء لقائهم في المعبد المذكور أو أثناء عملهم المشترك في مناجم الفيروز، فلا شك أن أهم هذه النواحي جميعا هي الكتابة التي أخذ سكان سيناء أغلب علاماتها من الكتابة المصرية الهيروغليفية كما أخذوا بعضها من الكتابة الهيراطيقية(٢). وتمكنوا بذلك من ابتكار أقدم أبجدية في التاريخ وهي الأبجدية البروتوسينائية.

نقش سكان سيناء الكتابة البروتوسينائية عند مداخل مناجم الفيروز في منطقة سيرابيط الخادم إما متناثرة مبعثرة أو في داخل اطار على شكل اللوحات المصرية القديمة (المستديرة من أعلاها شكل ٥) كما نقشوها على آثار ذات طابع مصري خالص مثل تماثيل أبي الهول (شكل ١) وتمثال الشخص القابع (شكل ٤).

وقد استخلص الباحثون من دراستهم لهذه الكتابة أنها حروف أبجدية محورة في أشكالها عن بعض العلامات الهيروغليفية المصرية(١) ولكنها فقدت خصائصها الأصلية في الكتابة الهيروغليفية سواء كانت مقاطع أو مخصصات(٣). واتخذت

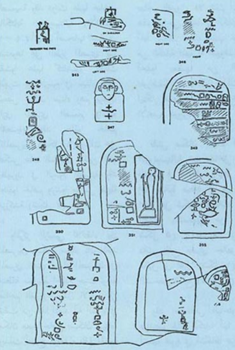

(شكل ٥) نماذج من الكتابة البروتوسينائية المحفورة على صخور منطقة مناجم الفيروز بسرابيط الخادم بسيناء.. وبعضها محاط بأشكال اللوحات المصرية القديمة المستديرة من أعلاها. هو طراز شائع للوحات المصرية.

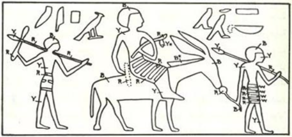

الصِّبغة الأبجدية. أما طريقة اختراعها فتبدو أن الكتابة المصرية الهيروغليفية بعلاماتها التي تصل الى حوالي ستمائة وخمسين علامة بخصائصها المقطعية المعقدة، والتي لم يكن يستطيع استخدامها إلا الذين نشأوا في البيئة المصرية وتمرسوا عليها منذ صغرهم، يبدو أن هذه الكتابة استعصت على سكان سيناء من الساميين البسطاء، فبسّطوا بعض علاماتها بأن حولوها من كتابة مقطعية (أي تنطق بصوتين أو أكثر) الى حروف أبجدية واتبعوا في ذلك طريقة يطلق عليها علماء اللغات اسم الطريقة

(شكل ٦)

رسم على لوحة منقوشة بالهيروغليفية وجدت بين أطلال المعبد المصري بسيرابيط الخادم، يمثل ثلاثة من سكان سيناء الساميين. وقد دونت أسماء اثنين منهما فوقهما بالهيروغليفية. فأحدهما يدعى «أبيم» والثاني «شكام» وهذا الأخير قريبا من الاسم السامي المعروف «شكيم». ويلاحظ أن الرجال الساميين الثلاثة قد تشبهوا بالمصريين في حلق لحاهم وارتدوا النقبة القصيرة.

(شكل ٧)

منظر ورد على الآثار المصرية في صعيد مصر يمثل المظهر الشائع للساميين في الرسوم المصرية القديمة فمانوا يمثلون دائما بملابس طويلة مزركشة وقد أطلقوا لحاهم (والرجلان اللذان الى اليمين هما موظفان مصريان يتقدمان موكب الساميين ويلاحظ أن هذين المصريين حليقي الذقن)

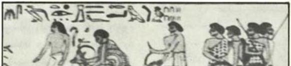

الاكروفونية Acrophonic principle وهي تشبه الطريقة التي نتبعها في الوقت الحاضر لتعليم الأطفال القراءة، فمثلا عندما نريد تعليم الطفل قراءة حرف «ب» فاننا ننتقي كلمة تبدأ بحرف الباء مثل كلمة (بيت) ونرسم له شكل بيت ونطلب منه أن ينطق اسم هذا الشكل. ثم نكتب له الحرف الأول من الكلمة وهو «ب». وبهذه الطريقة يتعلم الطفل قراءة حرف الباء من ارتباط نطقه بكلمة **«بيت»**.

بهذه الطريقة نفسها ابتكر الساميون سكان سيناء الأبجدية البروتوسينائية مستخدمين في ذلك بعض علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية. ومثال ذلك أنهم عندما أرادوا اختيار علامة تمثل حرف «ع» من العلامات الهيروغليفية علامة على شكل عين الانسان (انظر الجدول شكل ٨) وكان المصريون يستخدمون هذه العلامة كمقطع ينطق «إر» في صلب الكلمات مثل كلمة «إرتت» ومعناها **(لبن)** ومثل كلمة **(ارتيو)** ومعناها «حُزْن» أو «حداد». ولما كانت هذه العلامة ترسم على شكل «عين الانسان» التي تدعى أيضا «عين» في لغتهم السامية القديمة (وهو نفس اسمها في العربية الحالية فمن المعروف أن اللغة العربية هي احدى اللغات التي انحدرت من اللغة السامية القديمة) أي أن الحرف الأول منها ينطق «ع»، **فقد أخذ الساميون شكل العين هذه كعلامة لحرف «العين» أي حولوا العين المقطعية (إر) في الكتابة الهيروغليفية الى حرف «ع» الأبجدي في كتابتهم البروتوسينائية.**

وبالاضافة الى تحويل العلامات المقطعية الهيروغليفية الى علامات أبجدية، فقد انتقى سكان سيناء عدة حروف من الأبجدية الهيروغليفية المصرية واستخدموها استخداما سليما. فقد كانت الكتابة الهيروغليفية يوجد بها اثنان وعشرون حرفا أبجديا (بالاضافة الى العلامات المقطعية التي ذكرناها والعلامات الأخرى التي تستخدم كمخصصات). ولكن المصريين القدماء لم يستخدموا هذه الحروف الأبجدية في صلب الكلمات استخداما أبجديا سليما في أغلب الأحوال، بل استخدموها كمكملات صوتية للكلمات مما أفقدها قيمتها الأبجدية. ومثال ذلك استخدام حرف «ز» في كلمة

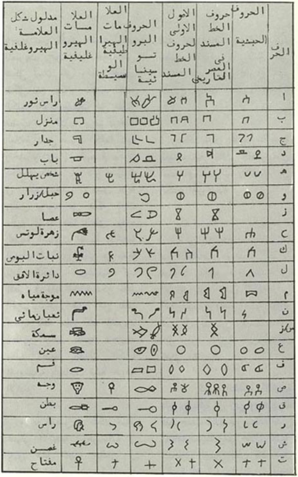

الحرف	الحروف الحبشية	حروف الخط المسند في العصر التاريخي	الاحرف الاولى لحروف الخط المسند	الحروف البروتوسينائية	العلامات الهيراطيقية المبسطة	العلامات الهيروغليفية	مدلول شكل العلامة الهيروغليفية
ا							راس ثور
ب							منزل
ج							جدار
د							باب
ه							شخص يهلل
و							حبل/زرار
ز							عصا
ح							زهرة لوتس
ك							نبات البوص
ل							دائرة الافق
م							موجة مياه
ن							ثعبان مائي
س/ز							سمكة
ع							عين
ف							فم
ص							وجه
ق							بطن
ر							راس
ش							غصن
ت							مفتاح

(شكل ٨) جدول يوضح مراحل تطور بعض علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية (إما مباشرة أو عن طريق الكتابة الهيراطيقية) الى الأبجدية البروتوسينائية ثم الى الخط المسند ومنه الى الأبجدية الحبشية (عن طريق هجرة السبئين الى الحبشة منذ القرن السابع ق.م).

«حز» بمعنى «أبيض اللون». وكان المصريون يرسمون هذا الحرف على شكل ثعبان مائي (انظر الجدول شكل ٨) فكانوا يكتبون هذه الكلمة بعلامة مقطعية على شكل مضرب من الخشب. ورغم أن هذه العلامة تشمل أصوات الكلمة كلها (الحاء والزاي) إلا أنهم لم يكونوا يكتفون بذلك، بل كانوا يضيفون في آخرها الحرف الأبجدي «ز» (الذي يرسمونه على شكل ثعبان مائي) ليؤكد هذا النطق. وهذه الطريقة أضاعت القيمة الأبجدية للحرف لأن الذي لم يكن على معرفة تامة بالكتابة الهيروغليفية كان يخطىء في قراءة الكتابة بتكرار نطق الحرف الأخير. فبدلا من نطقه «حز» فقط مثلما كان المصريون ينطقونه، فانهم نطقوه «حزز». وهذه الطريقة عقدت الكتابة الهيروغليفية وأضاعت قيمة حروفها الأبجدية.

ويرجع الفضل الى سكان سيناء مخترعي الأبجدية البروتوسينائية في تلافي هذا العيب وبالتالي في استخدام الحروف الأبجدية المصرية استخداما أبجديا سليما. فمثلا استخدموا الحرف (ز) هذا الذي كان المصريون يرسمونه على شكل ثعبان ليمثل الحرف (ن) في كتابتهم بنفس الطريقة الاكروفونية التي ذكرناها لأن الثعبان اسمه في لغتهم (نحاش) أي أن اسمه يبدأ بالحرف (ن).

وهكذا تلافى مخترعو الأبجدية البروتوسينائية ذلك القصور في استخدام الحروف الأبجدية في الكتابة الهيروغليفية.

بهذه الطريقة ابتكر سكان سيناء أبجدية من ٢٧ حرفا أخذوا أشكالها من العلامات الهيروغليفية المصرية فنشأت بذلك أقدم أبجدية في التاريخ. فهي تسبق أبجدية رأس شمرا المسمارية (أقدم أبجدية معروفة قبل أن يتوصل العلماء الى حل رموز الكتابة البروتوسينائية) بحوالي ٢٠٠ سنة.

أما كيف انتقلت الأبجدية البروتوسينائية الى اليمن وحضرموت فقد حدث ذلك عبر منطقة مدين المتاخمة لسيناء ومنها خلال الطريق التجاري الشهير الذي كان يخترق الجزيرة العربية من شمالها الى جنوبها والأدلة على ذلك العثور على حروف مبكرة من الخط المسند في منطقة مدين ثم العثور على حروف

من الأبجدية البروتوسينائية في جنوب الجزيرة العربية. أما بالنسبة للأمر الأول فقد عثر الباحثون على الأحرف المبكرة من الخط المسند في منطقة تل الخليفة المتاخمة لميناء العقبة وذلك في احدى الطبقات التي ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد(٣) أي حوالي الزمن الذي ظهرت فيه حروف الكتابة العربية الجنوبية في اليمن وحضرموت أو بعده بقليل. وبالنسبة للأمر الثاني فقد وجدت أحرف بروتوسينائية محفورة على الصخر في منطقة «العبر» في شمال حضرموت(٥).

وأخيرا فان الدليل الواضح على اشتقاق حروف الخط المسند من الأبجدية البروتوسينائية هو التشابه الكبير بين حروف هذا الخط وخاصة حروفه المبكرة وبين حروف الأبجدية البروتوسينائية كما يتضح ذلك من الجدول في شكل ٨.

الهوامش

(١) أطلق الباحثون عليها اسم البروتوسينائية Proto. Sinaitic أي «السينائية المبكرة» تمييزا لها عن كتابة أخرى محفورة على صخور شبه جزيرة سيناء أيضا لكنها متأخرة عن الكتابة البروتوسينائية بفترة تتراوح بين ١٥٠٠، ١٨٠٠ سنة. والكتابة السينائية هذه محفورة على صخور وادي المكتب في غرب سيناء وهي الأصل المباشر للخط العربي، وقد تطورت من الخط النبطي أي أنها حلقة الاتصال بين الأبجدية النبطية والأبجدية العربية.

(٢) الكتابة الهيراطيقية مشتقة من الكتابة الهيروغليفية وعلاماتها أكثر اختصارا من علامات الهيروغليفية (انظر على سبيل المثال العلامات الهيراطيقية شكل ٨).

(٣) المقاطع Syllables سنشرحها فيما بعد، أما المخصصات Deteminatives فهي علامات كان المصريون يضيفونها الى آخر الكلمات الهيروغليفية دون أن تدخل في نطق هذه الكلمات، بل لتوضح معناها فمثلا كلمة «ست» معناها «سيدة» في اللغة المصرية القديمة (مثل اللغة الدارجة في مصر)، كان المصريون يرسمون في آخر هذه الكلمة شكل امرأة جالسة أي مخصص ليوضح معناها.

4. N. Glueck, «The first campaign at Tell el-khelifeh», Bull. Amer. Sch. Or. Res., No. 71 (1938) PP. 3-17.

5. A. Jamme, «Preliminary report on epigraphic research in north - western Wadi Hadramawawt and at Al-Abar.» Bull. Amer. Sch. Or. Res. No. 172 (1973) PP. 14 - 53-

«أهم المصادر والمراجع»

أ – عن آثار سيناء المصرية والبروتوسينائية :

1. Petrie, M.W., Researches in Sinai, 1906.

2. Cerny, Gardiner and peet, The inscriptions of Sinai, (2vols), 1955.

(الكتاب الأخير عن الآثار المصرية).

ب – عن حل رموز الكتابة البروتوسينائية :

1. Gardiner, «The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet» Journ. Egyp. Arch. vol III (1916).

2. Sprengling. M., «The Alphabet», Univ. of Chicago Orient. Inst. Communic. No. 12 (1931).

هذا الكتاب يتناول أيضا طريقة اشتقاق الخط المسند من الأبجدية البروتوسينائية بالتفصيل).

3. Cowley, AE, The Sinaitic insctiptions. Journ. Egyp. Arch. vol.r XV (1929).

4. Albright, W.F., The early alphabetic inscriptions from Sinai and their decipherment, Bull. Amer Sch. Or. Res. No. 110 (1948).

5. Albright, W.F. «The Proto - Sinaitic insctiptions and their decipherment», Harv. Theol Stud. XXII, 1966.

وقد اتفق الباحثون الثلاثة (المذكورين في ١، ٢، ٣) تقريبا في قراءة الكلمات والعبارات البروتوسينائية وخاصة في العبارة الواردة على تمثال أبي الهول (شكل ١، ٢) على أنها ترجمة للعبارة الهيروغليفية الواردة على نفس التمثال ولكن البريت اختلف عنهم في هذه القراءة وفي كثير من القراءات الأخرى بل اختلفت قراءاته في بحثيه (رقم ٤، ٥) مما يضعف من قراءاته ويرجح قراءات الباحثين الآخرين.

وأحدث بحث شامل في هذا الموضوع :–

6. Jensen H., Sign, Symbol and script, rev. ed. (1958).